تقنيات التصوير الفني في شعر معركة القادسية

إعداد

د/ مي إسماعيل محمد

مدرس بكلية الآداب جامعة أسوان

الملخص:

يهدف هذا البحث لبيان تقنيات التصوير التي استخدمها (الشعراء/ الجنود) في حديثهم عن معركة القادسية؛ تلك (المعركة/التتويج) لجهود المسلمين منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، كان للمسلمين فيها صولات في سبيل نشر الإسلام ، وقد كانت الدولة الفارسية ذو سطوة وحيثية جعلت من فتح العراق سبيلاً شاقًا استتبع أربع معارك حتى كانت القادسية؛ معركة شهدت أغرب وسائل الحرب كاستعمال العدو للأفيال، لكن بالتخطيط السليم وقوة العزم لدى الجنود المسلمين وقادتهم تمكنوا من تحقيق النصر وقتل زعيم الفرس وقائدهم، كل تلك التفاصيل وأكثر صُورت بوضوح في أشعار الجنود المسلمين؛ فقد حكى كل منهم جانبًا من جوانب تلك المعركة، مستخدمًا مهاراته الشعرية، وإن كانت البساطة والمباشرة هي السمة السائدة والأساسية في أشعارهم ، إلا أن الشكل الملحمي طغى على طريقة التصوير، وقد ساهمت المفردات اللغوية على معايشة الأحداث ومعاينتها رؤيا العين، وقد اعتمد البحث في ذلك على الدراسة الوصفية التحليلية .

Abstract:

This research aims to show the photography techniques used by the (poets / soldiers) in their talk about the battle of Al-Qadisiya, that (the battle/ coronation) of the efforts of Muslims since the era of the Messenger - may God bless him and grant him peace - until the era of the Caliph Al-Rashid Omar bin Al-Khattab, in which Muslims had prayers for The spread of Islam, and the Persian state was powerful and rational, which made the opening of Iraq a difficult path that entailed four battles until the Qadisiya; a battle that witnessed the strangest means of war as the enemy's use of elephants, but with the proper planning and strength of determination among the Muslim soldiers and their leaders, they managed to achieve victory and killed the Persian leader and their leader, All those details and more They were clearly depicted in the poems of Muslim soldiers. Each of them recounted an aspect of that battle, using his poetic skills, although simplicity and directness were the dominant and essential feature of their poems, but the epic form overwhelmed the way of photography, and the vocabulary contributed to the formation of graphic images based on the experience of the events and their inspection, The Eye Vision, and the research relied on this based on the descriptive and analytical study.

مقدمة:

ينقسم الأدب العربي تاريخاً إلى: العصر الجاهلي، ويؤرخ له بـــــ ٢٠٠ عام قبل الهجرة [١]، وعصر صدر الإسلام ويؤرخ له من عام (١ هـــ - ٤١هـــ)؛ وفيه يشمل عصر النبوة بعد الهجرة إلى المدينة وعصر الخلفاء الراشدين حتى مقتل علي بن أبي طالب- رضي الله عنه -.

يعد عصر صدر الإسلام عصرًا غنيًّا بالأحداث؛ أحداث قائمة على التوسع في نشر دين الله خارج حدود الجزيرة العربية، أحداث قائمة على إرسال جيش عربي يدعون لدين الله في أطراف الجزيرة العربية والدول المجاورة لها، غير أن هذه الإرساليات زادت وتيرتها في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وذلك بعد استقرار الحال المسلمين بعد التحديات التي واجهوها بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: من حروب الردة، جمع القرآن، تسيير جيش طارق بن زياد.

كان عهد الخليفة عمر بن الخطاب عصر استقرارٍ نظرًا لطول مدة خلافته التي استمرت ما بين عام (١٣هـــ - ٢٣ هـــ). ساهمت تلك الفترة على زيادة الفتوحات التي امتدت من فتح أذربيجان وبلاد فارس شرقًا إلى مصر غربًا وبلاد الشام شمالًا. (انظر الشكل١)

١- أول من وضع التقويم الهجري هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، فقد اعتد الأشهر العربية المعروفة قبل ظهور الإسلام؛ إنما ابتدأ التقويم بهجرة الرسول من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة لعظم هذا الحدث في تاريخ الإسلام، وكان عهد جديد لبناء دولة عربية يوحدها الدين الإسلامي، يوافق هذا التقويم عام ٦٢٢ م.

(شكل ١ يوضح فتوحات الرسول صلى الله عليه وسلم والصديق والخطاب)[١]

جاءت هذه الفتوحات عبر معارك شهدت أعظم البطولات، شهدت مواقف صمود وقوة عزيمة. كانت أبرز تلك المعارك[٢] هي:

- معركة النمارق (شعبان ١٣هـ).
- معركة الجسر (شعبان ١٣ هـ).

١- عهد الفاروق .. دولة العدل والفتوحات . سمير الحلبي . الإتاحة : https://archive.islamonline.net/?p=9471 . تاريخ الزيارة : ٢٠١٧/١٢/٢٨م .

٢- بدأت المعارك ضد الدولة الفارسية بفكرة اقترحها المثنى بن حارثة – من قبيلة ربيعة المقيمة على الحدود بين العرب والفرس – على الخليفة أبي بكر الصديق، بعدها وجّه الصديق جيشين عام ١٢هـ، أحدهما بقيادة خالد بن الوليد والآخر بقيادة عياض بن غنم، يتجه الأول أسفل العراق والآخر أعلى العراق ليطبقا على العدو كالكماشة، سميت هذه المعركة بـ(ذات السلاسل)، تبعتها معارك كثيرة كُللت بالانتصار، ثم سيطرة العرب على الحيرة وجنوب العراق. بعد وفاة الصديق استكمل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فتح العراق وكانت أول المعارك التي خاضها المسلمون وانتصروا فيها معركة (النمارق)وآخرها (القادسية).
انظر سعد بن أبي وقاص..السباق للإسلام،المبشر بالجنة والقائد الملهم. د/صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم – دمشق. ط.أولى. ١٤٢٤هـ –٢٠٠٣م. ص٢٠٧:٢٠٣.

- معركة البويب (رمضان ١٣ هـ).
- معركة القادسية (١٣:١٥ شعبان ١٥هـ).

كما عرضنا، فالمعارك الأربعة السابقة التي تمت في عهد عمر بن الخطاب تبدو متقاربة زمنيًّا؛ موجهة كلها ضد الدولة الفارسية، كانت معركة القادسية الحاسمة؛ حقق فيها العرب انتصارًا مدويًّا؛ جعلهم يتغنون بها في أشعارهم، ويصفوها بدقة جعلت من القصائد أشبه بالملحمة.

" لا شك أن القادسية – وتقاربها اليرموك– تقع على قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ العالم، فهي التي انفتحت على آثارها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، وهي التي من عندها استطرد نصر المسلمين، فاستطرد معه السقوط الساساني من الناحيتين الحربية والسياسية، والسقوط المجوسي من الناحية الدينية العقائدية .. ولولا ذلك لظل محصورًا في جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة في صحاريها وحواضرها القليلة " [١].

في القادسية كسر المسلمون شوكة المجوس كسرًا لم ينجبر بعدها أبدًا. فيها ألقى الفرس بكل طاقتهم من سلاح وعتاد وأفيال كثيرة وأعداد ضخمة من الجند، وبقيادة تمثلت في أحكم رجالهم وأشهرهم في الحرب والسياسة. وألقى المسلمون أيضًا بكل إمكانياتهم من وجوه المسلمين وغررهم وبقيادة تمثلت في صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم.. سعد بن أبي وقاص " [٢]

في ضوء ذلك جاء هذا البحث ليسلط الضوء تلك المعركة الحاسمة، التي غيرت خارطة الدولة العربية بدخول العراق في إطارها، وتقليص ملك آل ساسان، ومن ثمّ تواريها خلف الدولة العربية الجديدة والدخول في مضمارها – فيما بعد– في عهد الدولة الأموية والعباسية، من خلال البحث في أشعار (الشعراء / الجنود)، وكيف وظفوا تقنيات محددة لتصوير أحداث ونتائج المعركة.

١– القادسية. أحمد عادل كمال . دار النفائس. بيروت –لبنان. ط. التاسعة. ١٩٨٩م. ص ١٠

٢– المرجع السابق.ص١٠، ١١

أولاً – خصائص وموضوعات الشعر بين الجاهلية والإسلام :

لم ينشأ الشعر العربي في العصر الجاهلي دَفعة واحدة؛ إنما مر بمراحل تطور وصلت به في النهاية إلى الشكل الذي نعرفه اليوم عن شعر العصر الجاهلي؛ شعر يقوم على أساسٍ من التلقائية والبساطة فالشاعر " يذكر ما تُلقنه إياه الطبيعة وهو مبتدع لا متبع؛ يفكر في شيء محسوس يفهمه، ويشعر بعاطفة شخصية يتأثر بها ، ويروى مشهدًا شيقًا يقع في نفسه موقعًا لطيفًا، فيصور كل ذلك بما لديه من الألفاظ تصوير صدقٍ، متوخيًا الأمانة في أقواله "[١]. كما يقوم أيضًا على عنصر إتمام الوصف؛ "فكانوا لقلة الموصوفات عندهم يجمعون كل انتباههم وجميع ملاحظاتهم لإتمام الصورة؛ فإذا وصف الشاعر منهم استقرأ جميع صفات الموصوف، وتتبعها فلا يختم عمله حتى يتم لنا الصورة بأبهى منظرٍ وأدق بيان"[٢].

مع ظهور الإسلام ونزول القرآن تغيرت معالم الشعر العربي شيئًا كثيرًا؛ فقد أصبح يستمد صوره البلاغية من بلاغة القرآن الكريم الذي أدهشهم بيانه، ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حظِي بأسلوب بلاغي شيق– أمده الله به – أسر بها قلوب العرب ورغّبهم في الإسلام .

وقد اختلفت موضوعات الشعر في عصر صدر الإسلام عمّا كانت عليه في الجاهلية؛ فبعدما كانت تتسم موضوعاته بوحدة البيت، تلحظ فيها قصائدًا تشتمل على البكاء الأطلال، الغزل، الفخر.. إلخ، تجد أن ذلك العصر جعل القصائد تتسم بالوحدة الموضوعية؛ ومرجع ذلك– بشكل كبير – إلى المساجلات الشعرية التي تمت بين المسلمين في المدينة والمشركين في مكة؛ تلك المساجلات التي دافع فيه المسلمون عن رسول الله ودين الإسلام بما أتوا من قوة، وقد ساعد على ذلك

١–الشعر الجاهلي :نشأته–فنونه–صفاته. فؤاد أفرام البستاني. المطبعة الكاثوليكية – بيروت . ١٩٣٧م. ص٣٢

٢– المرجع السابق. ص٣٣

تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فنشأت موضوعات شعرية تدور حول : الدعوة للدين الجديد ونصرته، مدح الرسول و تهديد الأعداء .

ثم تأتي غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم لتأجج في المسلمين روح الحماسة والإقدام للدفاع عن الإسلام والرسول الكريم؛ غزوات كانت المواجهة فيها مفروضة على المسلمين – كما في بدر – استتبعت بعد ذلك مواجهات لنشر دين الله في أطراف الجزيرة العربية ومنها إلى البلاد المجاورة لها، كما في غزوة تبوك؛ تلك التي غيرت خارطة الدولة الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية وجعلت منها قوة أولى بعد فرار الروم من مواجهة المسلمين الذين حازوا على إثرها منطقة تبوك وما حولها مما كان تحت الولاية البيزنطية. هنا تنشأ أغراض شعرية جديدة تدور حول تلك الغزوات إما بالفخر أو الوعد بالرجوع في حال الهزيمة – كما في أُحد – .

لكن تزداد الأغراض الشعرية وضوحًا وتميزًا في عهد الخلفاء الراشدين خاصة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب؛ الذي اتسم عهده بالاستقرار نظرًا لطول فترة حكمه. فقد أسهمت فتوحات عمر بن الخطاب في ازدياد رقعة الدولة الإسلامية العربية بفتح بلاد فارس ووصول الجيش إلى المدائن عاصمة الفرس، وأيضًا دخول الجيش إلى فلسطين وتحرير القدس من الروم ومن ثمّ فتح مصر وشمال إفريقيا.

مع ازدياد وتيرة الفتوحات في عهد الخطاب ينشأ غرض شعري هو: شعر الفتوح؛ " كانت أناشيدًا حماسية يتغنون فيها بانتصاراتهم ويمتدحون شجاعتهم وما يؤدون لله ودينه "[١] ، وبالتدقيق في هذا الغرض نلحظ تضمين الشعراء فيه ألوانًا من الخوالج النفسية المعبرة عن الحنين للأهل والديار ، والرثاء لشهداء المعارك أصدقاء وإخوة الأبطال المنتصرين . على أن السمة العامة لشعر الفتوح هو "الإيجاز؛ فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة، وجمهوره لذلك

١ – العصر الإسلامي. شوقي ضيف .دار المعارف . ط. السابعة . د.ت . ص٦٢

مقطوعات قصيرة، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية. إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة، ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يضرب بسيفه .. ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التلكف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد"[١] .

ثانيًا – شعر الفتوح ومعركة القادسية :

شهد عهد الخطاب معارك كثيرة في سبيل فتح العراق والشام؛ ففي فتح الشام نجد: معركة بيسان، معركة مرج الروم، معركة فتح دمشق.. إلخ. أما فتح العراق فشهد معارك عديدة أيضًا كان أهمها: معركة القادسية. في تلك المعارك جميعًا تفتحت قريحة الجنود والشعراء المشاركين؛ فهم ممثلون لدولة ناشئة تدعو لدين الله وتواجه في سبيل ذلك أقوى الدول سطوة ونفوذًا، لذا جاءت أشعارهم نابعة من عاطفة صادقة، تلك السمة كانت أبرز ما تُميز شعر الفتوح .

كما أسلفنا ، كانت معركة القادسية ختام ثلاث معارك صغيرة متتالية لفتح العراق ، كانت فيها القادسية الأقوى والأعنف نظرًا لطبيعة تجهيزات الجيش الفارسي؛ فقد نظم قائد الجيش الفارسي (رستم) جيشة بالهيئة التالية [٢]:

- ١٢٠,٠٠٠ مقاتل (من فئات مختلفة).
- ٣٠ فيلاً، بخلاف ٣ أفيال لا تقاتل، خاصة بالملوك.
- مع كل فيل ٤٠٠٠ مقاتل من الفرسان والمشاة.
- وقسم الجيش إلى أربع فرق:

  - هرمزان على الميمنة
  - جالنوس يسار هرمزان
  - بهمن في الوسط

١- العصر الإسلامي. ص٦٧

٢ انظر القادسية . ص١٣١

- بيرزان يسار بهمن
- سرير القائد (رستم) في الخلف

أما جيش المسلمين فقد كان فِرقًا من قبائل؛ جمعت كل قبيلة عددًا من أبناءها يشدون أزر بعض ويناصرون، حتى إذا كان النصر كان المجد والفخر لتلك القبيلة، بجانب ذلك اجتمعت القبائل كلها على كلمة واحدة، وتحت إمرة قائد واحدٍ هو (سعد بن أبي وقاص)، ونرى ذلك جليًّا في المفاوضات التي سرت بين العرب و(رستم) قبل الحرب، كان موقفهم فيها كقول ربعي بن عامر[١] لـــ(رستم) حين سأله: أسيدهم أنت؟ – خاصة وأنه كان على هيئة بسيطة – " لا ولكن المسلمين كالجسد، بعضهم من بعض، يجير أدناهم أعلاهم "[٢]. لهذا كان تجهيز جيش المسلمين الذي كان قوامه ٣٣,٠٠٠ مقاتل بالكيفية التالية [٣]:

- عبد الله بن المعتم، وتحت إمرته كل من :(قيس عيلان، قضاعة، طيء، عبد قيس، بكر بن وائل)
- عاصم، وتحت إمرته كل من : (بكر من وائل، الرباب، تميم)
- ابن مالك، وتحت إمرته كل من : (تميم، كنانة، بجيلة)
- شرحبيل بن السمط، وتحت إمرته كل من : (بجيلة، نخع، همدان، كندة، خثعم)

١– عندما بدأت مرحلة المفاوضات بعد المعارك الصغيرة بين المسلمين والفرس ، طلب رستم قائد الفرس رجلًا من العرب يتفاوض معه ؛ فاجتمع من العرب تسعة رجال منهم ربعي بن عامر، عندما أُمروا أن يتوجهوا إلى رستم ، اقترح (ربعي) أن لا يذهبوا جميعهم ؛ حيث رأى أن هؤلاء القوم لهم آراء وآداب متى رأوا المسلمين قد أتوهم جميعًا عدّوا ذلك احتفالًا بهم، لذا طلب ألا يزيدوهم على رجل واحد. هنا أعجب الجميع برأيه؛ فطلب (ربعي) على بناءًا على ذلك أن يذهب إلى رستم بنفسه، وقتها ذهب (ربعي) بأبسط شكل مسلحًا بكل ما يملك حتى انه رفض أن يخلع سلاحه في مجلس رستم . انظر القادسية. ص١٠٥،١٠٤.

٢– المرجع السابق. ص١٠٧

٣– المرجع السابق . ص١٢٠

يلاحظ حتى في تقسيم الجيش المسلمين أن هناك قبائل قُسمت على فرقتين؛ ليزيد ذلك ترابط الجيش وتلاحمه. لكن ذاك الترابط لم يكن الأوحد؛ فوحدة عقيدة المسلمين كان السبب الأبرز لقوة المسلمين وصمودهم، وهو ما نراه في الخصائص النفسية للمسلمين.

وقد كان اختيار منطقة القادسية يرجع لجبهة المسلمين، وكان لهذا الاختيار وجاهته؛ في نصيحة متفَقة ما بين المثنى بن حارثة وعمر بن الخطاب لما فيها من[١] :

- وقوعها على الحدود بين الصحراء وأرض العراق.
- بُعدها عن المسطحات المائية والبرك؛ فإن انهزموا في المعركة فإن الصحراء خلفهم، يمكنهم أن يتفرقوا فيها، وينجوا من الفرس.
- وجود العوائق المائية والبرك في جبهة الفرس أمام القادسية سيكون لها أثرها على الفرس عندما ينهزمون.

١- الخصائص النفسية لقائد جيش المسلمين وجنده:

أ. القائد سعد بن أبي وقاص:

هو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، يجتمع نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم في (كلاب بن مرة)[٢]، ولد قبل البعثة النبوية بسبع عشرة سنة، من العشرة المبشرين بالجنة.

١- القادسية .ص٤٥

٢- وهذا النسب يلتقي مع الرسول من جهة الأب فهو (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة)، ويلتقي من جهة الأم فهي (آمنة بنت وهب بن =عبد مناف بن زهرة) ، بهذا الاعتبار كان سعد رضى الله عنه خال الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول يفتخر بهذه الخئولة فيقول : "هذا خالي، فليرني امرؤ خاله" .
انظر سعد بن أبي وقاص. ٢١: ٢٣

كان من الرماة المشهورين، وكان له بلاء عظيم في الرماية حتى أن رسول الله يوم أُحد كان يناوله النبال ليرمي بها ويقول له: "ارم فداك أبي وأمي"[١]، وهو قول لم يقُله الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد إلا لسعد .

اشتهر بلقب (حارس رسول الله)؛ لأنه كثيرًا ما تطوع لحراسة رسول الله دون طلب منه؛ من محبته له وحرصه عليه. كما لُقّب بـــ (فارس الإسلام) لفروسيته وشجاعته وإقدامه. لهذا كان صاحب (أولية)؛ أول من أراق دمًا لكافر في سبيل الله، وهو أول من أطلق سهمًا في سبيل الله [٢].

شهد سعد بن أبي وقاص كل الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما شهد المعارك مع الخليفة الراشد أبي بكر الصديق، قُبيل وفاة الصديق كان جيش المسلمين المواجه للفرس قد انهزم في معركة (الجسر) بعد مباغتة الفرس المسلمين بأفيال تسبب أحدهم بمقتل قائد جيش المسلمين أبو عبيد الثقفي؛ الأمر الذي أدى لارتباك جيش المسلمين واستشهاد أربعة آلاف جندي، عندها تولى المثنى بن حارثة الجيش وأمَّن انسحابهم رغم إصابته إصابات بالغة، بعدها استطاع المثنى خوض معارك عديدة تالية انتصر فيها على الفرس.

بعد تلك الانتصارات علم المثنى بحشد الفرس لجموع كبيرة لملاقاة المسلمين، عندها ارتد إلى الصحراء وأرسل لعمر بن الخطاب – الذي كان قد تولى الخلافة – يطلب المدد، على إثر ذلك أرسل الخطاب إلى عمّاله في المناطق يطلب خيرة الرجال، ثم اجتمع الخطاب بمجلس شورته؛ ليقرر انتوائه الخروج بالجيش بنفسه، لكن المجلس رفض رأيه، وعلل عبد الرحمن بن عوف السبب قائلاً: " فإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزم خشيت ألا

١– صحيح مسلم . بعناية محمد وهيثم نزار تميم. دار الأرقم . ١٤١٩هـــ/ ١٩٩٩م . كتاب فضائل الصحابة – باب فضائل سعد بن أبي وقاص . حديث رقم : ٢٤١١ .

٢ – سعد بن أبي وقاص. ص٩٥: ٩٨

يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا ألا إله إلا الله أبدًا .."[١]. وبينما عمر ومجلسه يفكرون في الرجل المناسب لقيادة جيش المسلمين إذ أقبل رسول بكتاب سعد بن وقاص – الذي كان عاملاً على قبيلة هوازن يجمع منهم الصدقات ويرسلها إلى المدينة – يقول :"إني قد انتخبت لك ألف فارس مُؤدٍ، كلهم له نجدة ورأي، وصاحب حيطة، يحوط حريم قومه، ويمنع ذِمارهم، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فشأنك بهم .."[٢]، هنا هتف عبد الرحمن بن عوف بأنه قد وجد القائد مشيرًا إلى سعد بن أبي وقاص، بعدها اتفق عمر بن الخطاب ومجلسه على قيادة ابن أبي وقاص للجيش، ثم بدأت ترتيبات المعركة الحاسمة سريعًا.

بقيادة سعد بن أبي وقاص الجيش نلحظ تجلّي عظيم صفاته التي تمتع بها؛ فقد كان حاد البصر يستطيع رؤية ما يُبهم على غيره لبعد المسافة، كان شجاعًا حتى في لحظة مرضه وقت معركة القادسية التي جعلته قعيدًا لا يقوى على الحركة، ورغم ذلك "كان حال شدة الحرب يوم القادسية – مع مرضه في القصر – لا يغلق عليه بابه لشجاعته" [٣].

كان يعطي إشارات البدء للجيش من فوق قصره مستخدمًا التكبير كرمز للاستعداد والتأهب فقد " نظّم سعدٌ الجيش ، استعدادًا للهجوم، وقال لهم : " الزموا مواقفكم، ولا تحركوا شيئًا حتى تصلّوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبّر تكبيرة فكبروا وشدوا شسوع نعالكم، واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد

١- تاريخ الأمم والممالك .. تاريخ الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(٢٢٤-٣١٠هـ) . تحقيق: أبو صهيب الكرمي. بيت الأفكار الدولية . د.ت .

(السنة الرابعة عشرة- ذكر الخبر عما هيج أمر القادسية) . ص٥٨٣

٢- المصدر السابق.ص٥٨٤

٣- محض الخلاص في مناقب سعد بن أبي وقاص . الإمام جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي (٨٤٠- ٩٠٩ هـ) . تحقيق : محمد ناصر العجمي. دار البشائر الإسلامية . بيروت – لبنان . ط. أولى . ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م . ص١٣٣

قبلكم، اعلموا أنما أُعطيتموه تأييدًا لكم. فإذا كبرت الثانية، فكبروا وتهيؤوا، ولتستتم عدتكم. فإذا كبّرت الثالثة، فكبّروا، وليُنشِط فرسانكم الناس؛ ليبرزوا ويطاردوا. فإذا كبّرت الرابعة، فشدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا، وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله . . " [١]

هكذا كان سعد بن أبي وقاص، ذو عقيدة إيمانية عالية نابعة من صدق إيمانه حتى عُرف عنه أنه كان مستجاب الدعوة، عقيدة إيمانية نابعة وصايا الخطاب المتكررة له ولجيشه بالصبر والثبات والاستعانة بالله، والبعد عن المعاصي التي تجلب الهزيمة.

ب. <u>جيش المسلمين ونسائهم:</u>

كانت معنويات المسلمين والمسلمات عالية، وروحهم الجهادية مشرقة، الرجال يحرصون على الجهاد، ويستبسلون فيه، ويتواصون ويتعاهدون عليه، والنساء يعظنهم ويحمسنهم ويشجعنهم، ويداوين جرحاهم، ويحفرن القبور لشهدائهم، ويدفن هؤلاء الشهداء. تحفر المرأة القبر وتدفن أخاها أو أباهاأو ابنها أو زوجها. بهذه القلوب والشخصيات جاهد السابقون، وبها نالوا النصر من عند الله[٢]. قالت في ذلك أم كثير – امرأة هّمام بن الحارث النخعي – :" شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس، شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي، ثم أتينا القتلى، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبِعَنا الصبيان نولِّيهم ذلك، ونصرِّفهم به " [٣].

كما اشتمل جيش المسلمين على عناصر فعالة ساهمت بقدر كبير على رفع معنويات الجيش وزيادة صبره على القتال؛ لقد دارت معركة القادسية في أربعة

١– تاريخ الطبري. (يوم إرماث – السنة الرابعة عشرة). ص٦٠٣

[٢]- سعد بن أبي وقاص .ص٢٥٧

[٣]- المرجع السابق. ص٢٨٦

أيام وثلاثة ليالٍ، كانت المعركة فيها شديدة على المسلمين والفرس، ثبت فيها المسلمين بقوة إيمانهم، حاول الفرس فيها الصمود بما أوتوا من فرسان وعتاد، غير أن عدد قتلى المسلمين تبين المهارة الحربية التي اتسموا بها ؛يث استشهد ما يقارب ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد، بما يقارب نسبة ٢٥% فقط، بينما حصد المسلمون من أرواح الفرس أكثر من ذلك بكثير؛ فقد حصدوا في اليوم الثالث والرابع وحده من المعركة خمسون ألفًا، وقتلوا من الجنود الفرس المقرنين بالأصفاد ثلاثون ألفًا ، بما يقارب ٦٦,٦% .

وإذا بحثت في تلك العناصر الفعالة ستلحظ اسم القعقاع بن عمرو يلمع، فقد أُرسل من الشام إلى العراق؛ ليدعم جيش المسلمين في القادسية، حينها وصل في اليوم الثالث من المعركة، وقد ابتكر خطة زادت من همة الجيش المقاتل، فقد كان هناك مدد قادم من الشام قوامه خمسة آلاف جندي بقيادة هاشم بن عتبة، فاقترح القعقاع أن يصحب ألف جندي فقط يلحق بهم جيش المسلمين على أن يلحقه المدد الباقي، فقسم الألف جندي عشر فرق كل قسمٍ عشرة جنود، وطلب منهم التكبير بصوت عالٍ أثناء دخولهم المعركة، مما زاد من حماس الجند بشكل كبير، ليس هذا فقط بل نراه قد أعاد الكرة بالاتفاق مع أخيه عاصم بن عمرو في اليوم التالي، فقد انحاز بفرقته ذات الألف جندي خارج الجيش وانحاز أخاه بنفس العدد خارج الجيش ، وأشاعوا في الجيش أن هناك مددًا قادمًا، وبالفعل قسم كل منهما فرقته عشرة أقسام ، وجعلوهم يدخلون متواترين مكبرين، يفصل بين فترة زمنية كافية تسمح باحساس جيش المسلمين أن هناك دعمًا كبيرًا قدم عليهم إلى أن جاء مدد هاشم بن عتبة فتغيرت موازين المعركة التي استمرت أربعة أيام غير محسومة النتيجة للفريقين إلى نصر المسلمين، وبالطبع ليس المدد العددي هو السبب في النصر إنما التكتيك المتقن الذي عمل على رفع المعنويات والهمة القتالية عند الجنود كان الأكبر والأكثر تأثيرًا. تلك المعنويات العالية أحس على إثرها جيش الفرس أن عدد جيش المسلمين يزداد فشعروا بالخوف والرعب وعم بينهم الاضطراب [١].

١- سعد بن أبي وقاص ، بتصرف . ص٢٥٩ : ٢٧٢

٢- الخصائص النفسية لجند الفرس :

في الخصائص النفسية للمسلمين وقائدهم أفردنا القول عن القائد والجيش كلٌ بشكل منفصل، لأن لكلٍ منهما كانت له خصائصه التي ساهمت في الصمود وحسم نتيجة المعركة بالنصر، غير الأمر هنا مختلف كليًا؛ فقد كانت الحالة النفسية للقائد هي نفسها حالة الجنود، أولئك الجنود الذين تحدثنا عنهم بكونهم طوائف متعددة لا يجمع بينهم عنصر واحد يسهم في تلاحمهم، الأمر الذي أدى إلى ربط القائد مجموعة من العبيد يزيد عددهم عن الثلاثين ألفًا في أغلال مترابطة بعضها ببعض حتى لا يهربوا من أرض المعركة، الأمر الذي أدى إلى تمكن المسلمين منهم بسهولة .

يُذكر أن كسرى الفرس (يزدجرد) قد ولّى (رستم بن الفرخذاذ) قيادة جيش الفرس المكون من: (عناصر عربية – جنود مقاتلون – أتباع وخدم). وقد كان رستم كارهًا لهذا الأمر مجبرًا عليه، حتى أن زحفه نحو موقع تجمع المسلمين في القادسية استغرق أربعة أشهر ليقطع مسافة قدرها مائة وخمسة وثمانين كيلو مترًا فقط، لولا أن الملك خلفة يستعجله حتى أقحمه القادسية؛ كل ذلك أملاً في أن يضجر المسلمين من الانتظار فيرحلوا[١] .

هذا التباطؤ أثمر عن ضجر جيش المسلمين وإلحاحهم على الإقبال على المعركة، غير أن أوامر الخطاب كانت تقضي بعدم الهجوم بل الانتظار لقدوم العدو، الأمر الذي حبس سعد بن أبي وقاص لهؤلاء المشاغبين في حصن (قديس) منعًا للفتنة وتوحيدًا للكلمة٢. وكان ممن سُجن البطل أبا محجن الثقفي، الذي أنشد محزونًا عندما لم يتمكن من المشاركة في المعركة :

١- القادسية . ص٨٧

٢- المرجع السابق، ص١٥٨

- كفى حزنًا أن ترتدي الخيل بالقنا وأُترك مشدودًا علىّ وثاقيـــا
- إذا قمت عنّاني الحديد وغُلقـت مصارع دوني قد تصُمُّ المناديا
- ....
- وقد شفّ جسمي أنني كلُّ شارقٍ أعالج كبلًا مُصمتًا قد برانيـا [١]

لم يشفع للفرس أفيالهم التي استخدموها في معركتهم، لقد قيّض الله للمسلمين عناصرًا فارسية أسلمت وانضمت لجيش المسلمين، ساهمت بشكل كبير في تحديد نقاط ضعف الأفيال، مما أدى لانقلاب الأفيال على أصحابها عندما أصابها المسلمون في عينها ومشفارها للرجوع مسرعة هربًا من الأذى، مما نتج عنه قتل جنود الفرس تحت أقدام الأفيال المذعورة .

كما أن الفكر المجوسي الذي ينهى عن دفن القتلى وتركهم نهبًا للطيور والسباع أدى إلى زيادة حماس جنود المسلمين الذين شهدوا تلك الأعداد المتزايدة المتناثرة في أرض المعركة .

وأخيرًا، بين تردد رستم في ترك المعركة بل وأحيانًا ميله لدعوة الإسلام ، حيث كان يرى دومًا رؤيا متكررة عبّرها رستم – بنفسه وعبر المنجمين– بهزيمته المحققة ونصر المسلمين، وبين إقباله مكرهًا على المعركة التي أسلمته إلى الغطرسة حتى إن سمع أحدهم يقول (إن شاء الله) يقول (حتى وإن لم يشأ)، قُتل على يد هلال بن عُلفة التميمي، وتُرك تحت أقدام البغال، وقُتل معه عدد من أبرز قواده الذين قاتل منهم نفر حتى الموت، ومنهم من أُسر وقُتِل ، فممن قُتل من القواد (بزرجمهر الهمذاني) على يد القعقاع بن عمرو الذي تغنى بذلك قائلاً :

- حبوته جياشة بالنفـــــس هدارة مثل شعاع الشمس
- في يوم أغواث قليل الفرس أنخس بالقوم أشد النخس

حتى تفيض معشري ونفسي[٢]

١- القادسية . ص١٦٠

٢– المرجع السابق . ص١٥٥

إلى جانب انحياز عدد كبير من جيش الفرس كالديلم لجيش المسلمين بعد الهزيمة، وتحولهم لدين الإسلام؛ طالبين العزة فيه حيث لاعزة لهم عند الفرس الذين كانوا يستخدمونهم كخدم خاص لكسرى (برويز).

ثالثًا – تنويعات الصورة في معركة القادسية :

كان لزامًا أن نسرد بعض التفاصيل عن معركة القادسية لما حوته تلك المعركة بالغة الأهمية في تاريخ فتوحات العرب من تفاصيل يعجز الموضع هنا عن اشتمالها كلها، تفاصيل تبين جوانب نفسية أسهم الإسلام فيها، جوانب أدت إلى عقيدة ظهرت جليًّا في كل موقف قبل المعركة وأثنائها وبعدها. جوانب نستطيع أن نجملها في :

- وحدة العرب؛ فكانوا كالبنيان المرصوص تكاتفًا ودعمًا .
- النصر أو الشهادة، كان عنوانهم وهدفهم.
- الصبر الذي تجلّى عند النساء اللائي كانوا الجبهة الخلفية المساندة (للجنود/ الأخ– الأب– الابن).

تلك الجوانب رصدتها أشعار الجنود في المعركة، ولاستنباط تلك الصور سنعتمد في ذلك إلى تقسيم دراسة الأشعار إلى قسمين:

القسم الأول: أشعار أثناء المعركة .

القسم الثاني : أشعار بعد المعركة .

١– أشعار أثناء المعركة :

طبيعي أن لا توجد أشعار تقال قبل المعركة لإنشغال الجنود وقادته بالاستعداد والتأهب مستخدمين الحيطة والحذر، وهي أمور تشغلهم عن حتى التفكير بالتغني شعرًا. وهو يخالف ماهو واقع داخل المعركة؛ فالأشعار التي سنرصدها أثناء دوران المعركة تحمل صورًا من مشاعر المقاتلين، كيفية القتال وفرحة النصر والحزن على من استشهد من ذويهم، ولكي تتضح الصور الشعرية النابعة من قلب المعركة يجدر العلم أن معركة القادسية – كما قلنا – كانت أربعة

أيام ثلاث ليالٍ، سمى العرب كل يوم باسم مطاق لظروف المعركة فيه فنجد (يوم إرماث – أغواث – ليلة السواد – عماس – ليلة الهرير – القادسية)[١]، تظهر بالكيفية التالية :

أ. <u>مناوشات أول المعركة :</u>

اعتمد سعد بن أبي وقاص التكبيرات كوسيلة لترتيب تجهز الجيش بشكل معين، فإذا انتهى الجيش من التجهز بعد التكبيرة الثالثة انطلقوا نحو العدو مستعينين بالله، عندها انطلق رجل يُدعى غالب بن عبد الله الأسدي إلى ميدان المعركة قائلاً:

- قد علمت واردة المسالح ذات اللبان والبنان الواضح
- أني سمام البطل المُشايح وفارج الأمر المهم الفـــادح[٢]

وانطلق مثله عاصم بن عمرو أخو القعقاع نحو صفوف الفرس منشدًا :

- قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشّاه الذهـــب
- أني أمرؤ لا من يعينه السبـــب مثلي على مثلك يغريه العتب

١- يشير الأستاذ أحمد عادل أن الدكتور محمد حسين هيكل أنه لم تفسيرًا لهذه الأسماء في كتب المؤرخين ، لذا اجتهد بالبحث عن المعنى اللغوي لتلك الأسماء ، والتي تفسر سبب تسمية تلك الأيام بهذا الإسم ، (فإرماث) تعنى (اختلاط الشيء) وهو ما يفسر اختلاط المسلمين بالفرس اختلاطًا شديدًا في هذا اليوم . أما (أغواث) فيرجع إلى المدد الذي جاء كغوث لجيش المسلمين الذي جاء متتابعًا فعمل على رفع معنويات الجنود كثيرًا . أما (ليلة السواد) فكان لاستمرار تقاتل الفريقين ليلًا ولكي لا تختلط صفوف المسلمين ببعض كان ينادي كُلٌ على عشيرته أثناء المعركة. ويوم (عماس) كان القتال فيه شديدًا بين المسلمين والفرس، فالعمس الليل الشديد السواد ، وكانت المعركة شديدة لدرجة لم يجد معها الفريقين نهاية . ليلة (الهرير) كانت تلك ليلة عماس كانت رحى الحرب فيها دائرة حتى الصباح لا يُسمع فيها سوى صليل السيوف. وأخيرًا كانت معركة القادسية والنصر المبين . انظر القادسية . ص١٢٣: ٢٠٦

٢- المرجع السابق . ص١٣٣

والطريف في الأمر أن عاصمًا قد انطلق خلف أحد الفرس وقد كان ممسكٌ بغلاً، وظل يطارده حتى ترك البغل بما فيه واحتمى خلف صفوف أعوانه، عندها اصطحب عاصمٌ البغل وكشف عما فيه، فإذا هو غذاء لرستم قائد الفرس، فاقتسمه مع أصحابه ذلك اليوم.

تلك المناوشات السابقة تبعها التحام بين الرفيقين، لكن كان يتحسس كلٌ طريقه. إلى أن ارتد أحد رجال ثقيف وانسحب إلى جانب الفرس وبدأ يشير على الفرس مناطق ضعف المسلمين، هنا اشتد القتال فحمل عليهم المسلمون حملة مكنت رجلاً يُدعى طليحة بن خويلد من إصابة أحد قواد جيش الفرس يُدعى (جالنوس) بضربه على رأسه ضربة شقت مغفره ، قال يصفها :

- أنا ضربت جالنوس ضربة حين جياد الخيل وسط الكبه [١]

كما علمنا، فإن جيش المسلمين كان مقسمًا لقبائل كما اجتمعت، كل قبيلة علمت موضعها من أرض المعركة، كان بنو أسد من المشاركين في ذلك. في يوم(أرماث) اشتد هجوم الفرس على جبهة بنو أسد لبلائهم الحسن في المعركة إلا أن بني تميم استطاعت السيطرة على الموقف ونجدة بنو أسد؛ فقد أرسل سعد بن أبي وقاص لعاصم بن عمرو التميمي قائلاً: "يامعشر بني تميم، ألستم أصحاب الإبل والخيل! أما عندكم حيلة لهذه الفيلة؟ "، عندها نادى عاصم في قومه؛ فاجتمع أمهر الرماة الذين استطاعوا مناوشة الفيلة ومن ثم قطع التوابيت من عليها وإسقاط الفرسان الراكبين وقتلهم، عندها ارتاح بنو أسد من هجمات الفرس ورد بنو تميم ذلك الضغط واستمرت على إثرها المعركة حتى الليل. في ذلك أنشد عمرو بن شأس الأسدي قائلاً :

- لقد علمت بنو أســـــد بأنّا أولو الأحلام إن ذكروا الحلوما
- وأنا النازلـــــون بكل ثغرٍ ولو لم نلفـــه إلا هشيمـــــــــــا

١- فتوح البلدان.أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ) . وضع الحواشي : عبد القادر محمد علي . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . د.ت . ص٢٤٢ . ويقصد بالكبّة: الجماعة من الناس أو الزحمة .

- ترى فينا الجياد المسومّات مع الأبطال يعلكن الشكيـــــما
- ترى فينا الجياد مُجلّحـــات تُنهنه عن فوارسها الخصوما[١]

ب. مواقف وعلامات أثناء المعركة :

- **أبو محجن الثقفي:**

شهدت القادية بأيامها الأربع صولات وجولات بين المسلمين والفرس، لكن شهدت مع ذلك مواقف تُعد علامات بارزة مضيئة في تاريخ أصحابها بشكل خاص والتاريخ العربي بشكل عام. وموقف أبو محجن الثقفي أثناء المعركة كان من تلك العلامات؛ سجن أبا محجن الثقفي بعض ضجره من انتظار الفرس الذي طال لأربعة أشهر نتيجة تباطؤ زحف رستم بجيشه عليهم، فألح على سعد السبق في ملاقاة العدو، لكن إطاعة سعد لأوامر الخطاب إلى جانب الخطة المحكمة الموضوعة التي تقضي بالانتظار السبب في رفض الفكرة؛ التي على إثرها قرر سعد بسجن أبي محجن ومن وافقه الرأي لئلا تكون فتنة تمزق صفوف المسلمين. هنا وبعدما دارت رحى المعركة شعر أبو محجن بمسئوليته في المشاركة في المعركة، لكن قُوبل بالرفض. هنا عاود أبو محجن الطلب لكن عن طريق زوجة سعد مع قطع الوعود بالعودة للسجن مرة أخرى، فقد كانت مشاركته في ليلة السواد التي استمر فيها قتال الفريقين حتى الصباح، في هذا يفخر أبومحجن بعد عودته من المعركة إلى سجنه وأغلاله سعيًدا بالمشاركة بقوله:

- لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفـــــا
- وأكثرهم دروعًا سابغات واصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
- ....
- وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أُشعر بمخرجي الزحزفا
- فإن أُحبس فذلكم بلائي وإن أُترك أُذيقهم الحتوفا[٢]

١- القادسية . ص١٤٤ . مجلحات : هاجمات ، تنهنه: تكف وتمنع .

٢- المرجع السابق . ص١٦٢، ١٦٣

صدق الشاعر حين قال (لم أُشعر بمخرجي الزحوفا)؛ فقد ظنه المقاتلين ملك من السماء، حتى سعد نفسه ذو البصر الحاد شك لإيأمره ولم يجزم بأنه أبو محجن رغم تمييزه لهيئته وحصانه، لكن علمه ويقينه بوجود أبا محجن في السجن شوش عليه ما لاحظه.

بعد انتهاء المعركة في ذلك اليوم حكت زوجة سعد لسعد وفاء ابو محجن بوعده، عندها أطلقه سعد من سجنه لينضم للجنود .

- **الخنساء وأولادها الأربعة:**

عُرفت الخنساء في تاريخ الأدب العربي بقصائد في رثاء أخويها ، خاصة صخر. وعندما دخلت الإسلام استوعبت معانيه خاصة في الرضا بقضاء الله وقدره؛ الأمر الذي بدا جليًّا في وصاياها لأبنائها الأربعة قبل المشاركة في معركة القادسية، وقد كانت معهم في ذلك الوقت ضمن النساء القابعات في الجهة الخلفية من صفوف الجيش الإسلامي. تلك الوصايا سردها أولاده[1] قبل قتالهم في أشعار كانت كالتالي، قال الأول :

- يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحـــــة
- مقالة ذات بيان واضحـــــة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
- وإنما تلقون عند الصائحـــة من آل ساسان الكـــلاب النابحـــة
- قد أيقنوا منكم بوقع الجائحـــة وأنتـــم بين حيـــاة صالحـــــة

أو ميتة تورث غنمًا رابحة

فقاتل بعدها ثم قُتل، فخرج الثاني قائلاً :

- إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأي السدد
- قد أمرتنا بالسداد والرشـــد نصيحـــة منها وبرًّا بالولـــد
- ....

١- القادسية . ص١٥٤

فقاتل بعدها ثم قُتل، فخرج الثالث قائلاً :

- والله لانعصي العجوز حرفًا قد أمرتنا حـدبًا وعطفـــــا
- نصحًا وبرًّا صادقا ولطفـا فبادروا الحرب الضروس زحفا
- ....

فقاتل حتى قُتل، ثم خرج الرابع قائلًا :

- لست لخنساء ولا للأخـــــــرم ولا لعمرو ذي السناء الأقـــدم
- إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ماضٍ على الهول خضم خضرم
- إما لفوز عاجل ومغـــــــنم أو لوفاة في سبيل الأكـــــــرم

نال الأربعة الشهادة في معركة القادسية، وعندما خُبّرت الخنساء بذلك قالت صابرة محتسبة:" الحمدلله الذي شرفني بهم . . .". أشعار الأبناء الأربعة تشهد على طاعة وبر الأولاد بأمهم، فقد جعلوا من جهادهم وسيلة لذلك البر وإقدامهم في المعركة إنما هي طاعة واجبة لأمهم. نعم الأم الخنساء، ربت أولادها على الإقدام والشجاعة فاستحقت أن يصفها أولادها قبل استشهادهم بـــ(الناصحة – ذات حزم وجلد –النظر الأوفق والرأي السدد – أمرتنا ٠٠نصحا وبرا ولطفا – لست للخنساء).

ج. <u>ثبات وإقدام طوال أيام المعركة :</u>

كان القعقاع بن عمرو التيميي أحد أبرز المجاهدين في هذه المعركة؛ بخططه وتكتيكه السليم الذي أصاب الهدف المرجو، وبجانب براعته في المعركة أستطاع أن يرسم عبر أشعاره صورًا متعددة لجوانب الحرب ودوره وبلاؤه فيها، فنراه في كره وفره السريع استطاع أن يحصد ثلاثين فارسيًّا، وقد وصف ذلك بقوله:

- أزعهجم عمدًا بها ازعاجا أطعن طعنًا صائبًا ثجاجًا

أرجو به من جنة أفواجا[١]

[١]- القادسية . ص١٥٥

وفي ليلة الهرير، وبينما القعقاع يقف منتظرًا إشارة القائد لبدء الهجوم إذا بسهم يأتي من جهة العدو تصيب خالد بن يعمر التميمي، الأمر الذي أثار القعقاع الذي مل الانتظار؛ فحمل عليهم بفرقته قائلاً :

- سقى الله أرضا حلتها قبر خالد ذِهَاب غوادٍ مدجنات تجلجل
- فأقسمت لاينفك سيفي يحســـهم فإن زحل الأقوام لم أتزحل [١]

وقد عُرِف من صوت القعقاع الذي أنشد الأبيات التالية أن الحسم كان لصالح المسلمين في ليلة الهرير:

- نحن قتلنا معشرًا وزائدا أربعة وخمسة وواحـــــدا
- نُحسب فوق اللبد الأساودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربي واحترزت عامدا[٢]

تلك الأشعار الثلاثة تبرز صورًا من عقيدة القعقاع الحربية، فهو مصدر الازعاج للعدو، والثائر للصديق، والحاصد للأرواح التي أصبح يعجز عن عدها، ويؤيد القعقاع أقواله تلك ببيت أنشده قائلاً:

- يدعون القعقاع لكل كريهة فيجيب القعقاع دعاء الهاتف [٣]

وكأن دعواتهم تلك مجرد هتاف، على إثرها يجيب مسرعًا بالنجدة . فهو شاعر يبين أن الحرب إليه من الدعة والمكوث وصوت الرماح والسيوف أحب إليه من لبن اللقاح كما في قوله :

- لحربٌ شمرت بلوى قديس أحب إلى من دعة البراح
- وضرب كتيبة وطعـــــان ألذ إلي من لبن اللقـــــاح[٤]

---

[١]- القادسية. ص١٧٨

[٢]- المرجع السابق . ص١٨٢

[٣]- المرجع السابق. ص١٨٦

٤- صورة المحارب في ديواني عمرو بن معد يكرب الزبيدي والقعقاع بن عمرو التميمي. محمد خالد المبيضين . إشراف :د/ خليل الرفوع. ماجستير. ٢٠١٧م . كلية الدراسات العليا – جامعة مؤتة .ص٩٧

رغم أن معنى اللقاح الذي يعرفه العرب مستوحاه من طريقة تلقيح الإبل لتحمل وتلد، إلا أنه استخدمه هنا بمعنى أن حياة الدعة والراحة التي يكون فيها الاهتمام بالإبل ورعايتها ليست أحب إليه من الحرب التي تظهر فيها قوته وإقدامه. صورة قد تبدو غريبة بجانب الصور السابقة التي رأينها عند المحاربين، التي اتسمت بالبساطة، لكن المقاتل أراد أن يبين مدى حبه وإقباله على الجهاد دون أمور الدنيا.

٢- أشعار ما بعد المعركة :

اشتملت أشعار ما بعد المعركة على صور مختلفة ما بين: (بصرية) تصف ماحدث، ومابين (محسوسة: تذوق – شم – لمس- سمع)؛ فكانت بالنسبة (للشعراء/ الجنود) قصص من البطولات تُروى، بل تستحق أن يخلد فيها الشهيد قبل الناجي .

أ. ذكر قتل رستم قائد الفرس :

تنوعت الأشعار حول ذكر مقتل رستم قائد الفرس، ذلك الأمر الذي لم يطمئن له سعد بن أبي وقاص حتى رأى جثته بين يديه. فقد كان لمقتل القائد أثرًا عظيمًا في حسم نتيجة المعركة وإشاعة الرعب والفزع بين صفوف الفرس مما جعلهم مشتتين بين هارب وصامد يحفظ ماء وجهه بالمبارزة، لكن كلاهما نال نصيبه بسيوف المسلمين قتلًا وتجريحًا.

بعد القتال الضاري والنصر المبين بدأ الشعراء التغني بأكبر انتصار حققوه؛ وهو مقتل القائد، فنجد عمرو بن شأس الأسدي ينشد في ذلك قائلاً:

- جلبنا الخيل من أكناف نيق إلى كسرى فوافقها رعالا
- تركن لهم على الأقسام شجوًا وبالحقوين أيامًا طِـوالا
- ....
- قتلنا رستمًا وبنيه قسرًا تثير الخيل فوقهم الهيالا
- ....
- وفر البيرزان ولم يحامي وكان على كتيبته وبـالا
- ونجّى الهرمزان حذار نفسه وركض الخيل موصلة عجالا[١]

١- تاريخ الطبري . (يوم أغواث – السنة الرابعة عشرة). ص٦٠٤

أبيات رائعة استعان فيها الشاعر بالوصف وسرد الأحداث، بل وذكر ما حل بكل قائد في جبهة الفرس، فكان القتل لرستمًا والفرار للبيرزان والهرمزان الذي اعتبره قد نجى بنفسه بالحذر والاختباء والخيل المسرعة. وصف الشاعر جعل القصيدة تكاد تخلو من الصور البيانية، فهي مجرد (صورة بصرية) رسمها وأراد من يسمعها منه أن يعايشها معه كأنما حضروا تلك المواق؛. فقد عزز الشاعر تلك الصورة بلفظ (تثير الخيل ٠٠الهيالا)، (ركض الخيل ٠٠عجالا) .

إن الفخر بقتل رستمًا كان فخرًا عامًا؛ فرغم أن هلال بن علّفة التيمي كان القاتل له إلا أن الشعراء تغنوا بهذا وكأنهم من قاموا بذلك، ولا يعد هذا الأمر نكرانًا لدور هلال إنما هو إحساس الكل بكونهم كيان واحد؛ فيد هلال هو يَدَهم التي لم تطل رستمًا، لذا لا غرابة في قول عمرو بن شأس- سابقًا- (قتلنا) ، وفي قول قيس بن المكشوح :

- وجئنا القادسية بعد شهر مسومـــــة دوابرهـــا دوامي
- فناهضنا هناك جمع كسرى وأبناء المرازبـــــة الكـــــرام
- فلما أن رأيت الخيل جالت قصدت لموقف الملك الهمـــام
- فأضرب رأسه فهوى صريعًا بسيف لا أفلّ ولا كـــــــهام[1]

جعل الشاعر مقتل القائد على يديه مستخدمًا وصفًا خياليًا لم يحدث سريعًا بهذا الشكل في الواقع؛ فمقتل رستم جاء بعد تتبعه والوصول إليه ومن ثم قتله مباشرة، وفي رأيي هذه الصورة متناسبة مع حكي الشاعر عن المعركة التي أتم تصويرها من البدء للختام في أبيات قلائل .

على جانب آخر تنقل الشاعر ما بين وصف حركة الجيش صوب منطقة القادسية للاستعداد مستخدمًا عناصر بصرية (دوابرها دوامي) ليبين مشقة الرحلة التي كانت حركة مستمرة أصابت الخيل بالجروح الدامية، وما بين ملاقاة جيش كسرى الذي مكث أربعة أيام، وما بين تعقّبٍ لقائد جيش الفرس والوصول إليه وقتله مستخدمًا صورًا متحركة (ناهضنا – قصدت – فأضرب – فهوى).

[1]- القادسية. ص٢٠٨

ب٠ذكر الشهداء :

تنوع الشهداء بين الابن والأب والأخ ، ورغم المكانة العالية التي نالها الشهداء بوعد الله – سبحانه وتعالى – بجنات النعيم ، إلا أن الفراق له مرارة يحسها أقارب الشهيد، هم مسلمين بأمر الله وقضائه ، لكن الروابط الوثيقة بينهم هي من تهيج تلك المشاعر. لذا جاءت أشعارهم هنا ما بين أراجيز من حزن وأبيات من رثاء. كما في قول الشاعر الذي يصف حزنه على أخيه الأعور بن قطبة الذي بارز القائد الفارسي (شهر براز سجستان) وقتل كلٌ منها الآخر:

– لم أر يومًا كان أحلى وأمر من يوم أغواثٍ إذ اقتر الثغر
من غير ضحك كان أسوا وأبر [١]

د. الفخر بالقبيلة :

ذكر القبائل بالفخر في شعر العرب كان وسيلة لرفع شأنها وذكرها بين القبائل، فإن كانت لها خصال كريمة من كرم ونجدة ومُآزرة زاد شرف القبيلة، أما إن كان لها بطولات وحققت النصر فيه فهي ذات قوة ومنعة. لكن إن كان دور في القادسية فإن الشرف يزداد؛ فالقادسية ليست بالمعركة العادية؛ فهي معركة يُنشر بها الإسلام، فإن انتصر أبناء القبيلة كانوا مثار عزة، وإن استشهدوا فالقبيلة مصنع للرجال. لذا نجد شاعرًا كأشعث بن حجر يفخر بقبيلته قائلاً :

– فبئس امرؤ يأبى عليّ برهطه وقد ساد أشياخي معدًا وحِميرا[٢]

ه. تقسيم المغانم :

كسب المغانم من الفرس كانت كالمكافآت التي تهدى لهم بعد كل نزال وكل انتصار، فقد عُرف الفرس بحبهم للزينة من ذهب وجواهر، وقد شملت هذه الزينة ملابسهم ومجالسهم، لذا ورود الفخر بكسب تلك الغنائم كانت مكسبًا مهمًا فهو دليل مادي على الانتصار، سبيل ساهم في ازدياد ثروات الأبطال المسلمين.

١– تاريخ الطبري. (يوم أغواث – السنة الرابعة عشرة). ص٦٠٦

٢– القادسية . ص٢٠٨

لذا يفخر الشاعر أبو مفرِّز الأسود بن قطبة – وهو أخو الأعور بن قطبة – بذلك في قوله:

- ألا بلغا عني الغريب رسالـــة فقد قسمت فينا فيوء الأعاجم
- وردت علينا جزية القوم بالذي فككنا به عنهم ولاة المعاصم[١]

صورة بديعة تلك التي استخدمها الشاعر في وصف الفيء، فقد جعلها جزية مردودة إلى العرب، تلك الجزية التي كانت ضمن ثلاثة شروط طرحها المسلمون على الفرس وقائدهم (إما الاسلام وعندها لهم نفس حقوق المسلمين – أو دفع الجزية والانضمام لدولة العرب ويكون العرب لهم منعة – أو الحرب)، عندها استكبر الفرس الشرطين الأوليين وركنا إلى الشرط الثالث، لهذا يرى الشاعر أن ما في (المعاصم) من حلى وذهب رجع إلى المسلمين فيئًا وهم قتلى، وكان الأولى بهم دفع الجزية واستحقاق الحياة بكرامة وفي ظل الحماية العربية.

ورغم أهمية تلك المكاسب إلا أن هناك شاعرًا يفخر بتعففه عن نيلها، كما نرى عند النسير بن ديسم العجلي الذي قال:

- لقد علمت بالقادسية أنني صبور على اللأواء عف المكاسب [٢]

و. <u>الفخر بالنفس :</u>

قصدت ذكر هذا العنصر متأخرًا؛ فالفخر بالنفس بعد تحقيق النصر أمر بديهي؛ فالمكون الرئيس للنصر هم الرجال البواسل، لذا اخترت أن أبدأ بالحديث

١- الإصابة في تمييز الصحابة . الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني المعروف بابن حجر (٧٧٣- ٨٥٢هـ) . تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض. ـقديم : أد/ محمد عبد المنعم البري و د/ عبد الفتاح أبو سنة . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . ط. أولى . ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م . ج١- ص٢٢٩

٢- القادسية .ص٢٠٩

عن عناصر توثق الأحداث داخل المعركة أولاً، وبعدها اختتم بحديث الأبطال عن أنفسهم.

عهدنا في مجال الفخر بالنفس الشعراء العرب من العصر الجاهلي يستخدمون المبالغات في وصف قوتهم وحملهم للسلاح، لكن في هذه المعركة لا نستطيع أن نطلق لفظة المبالغة على وصف (الشعراء/ الجنود) لأنفسهم؛ فالمعركة – كما شهدنا أحداثها – لم تكن باليسيرة لذا كان واجبًا على كل جندي فيها أن يبذل ما في وسعه وأكثر، وهذا ما يفسر قول الشاعر عصام بن المقشعر عن نفسه:

- فلو شهدتني بالقوادس أبصرت جلاد امرئ ماض إذا القوم أحجموا
- أُضارب بالمخشوب حتى أفلّه وأطعن بالرمح المتلّ وأُقـــــــدم[١]

فقد جعل الشاعر المعركة وكأنها قامت به وحده عندما تراجع القوم، وما أدواته إلا (مخشوب – رمح متلّ)، فهو يريدأن يجعل من ثباته وقوة عزمه سلاح أقوى وعامل من عوامل النصر مهما ضعف السلاح المحمول بين يديه .

لا يفوتنا أن نورد للقعقاع بن عمرو صاحب الأيادي البيضاء يوم (أغواث) فخره بنفسه بعد المعركة، وقد حكى في أشعاره كيفية هزيمة الأفيال في قوله:

- فإن كنت قاتلت العدو فللته فإني لألقى في الحروب الدواهيا
- فيولاً أراها كالبيوت مغيرة أَسمُل أعيانًا لـــــــها ومآقيـــا[٢]

١- القادسية . ص٢٠٨

٢- تاريخ الطبري. (يوم عماس – السنة الرابعة عشرة) . ص٦٠٩

الخاتمة :

خرج البحث بنتائج تلقي الضوء على جوانب متنوعة من معركة القادسية، يمكن إجمالها في النقاط التالية :

١. قوة الخليفة وحسن مشورته ساهمت في تعيين قائد كفء، قادر في أصعب الظروف على المرور بالجيش للطريق السليم.

٢. صلاح القائد من صلاح الجيش، ولا أدل على ذلك من موقف أبي محجن الذي كان يذهب للمعركة متخفيًّا ويعود بعدها إلى سجنه ويضع القيود لنفسه بنفسه، وما ذاك إلا في سبيل المشاركة في المعركة والمساهمة في تحقيق النصر .

٣. كان للنساء دور عظيم في المعركة؛ كن الدافع للرجال للتضحية بالنفس في سبيل الغاية الأسمى (نشر الدين الإسلامي)، وكن يستقبلن جثث رجالهم بالصبر والثبات، كما رأينا في ذلك الخنساء أم الشهداء.

٤. طول أمد المعركة ساهم في ورود أشعار غزيرة وإن كانت في أبيات قليلة تصف أحداث المعركة لحظة بلحظة .

٥. كانت المعاني والألفاظ واضحة بسيطة أقرب إلى الوصف منها إلى استخدام الصور الجمالية، فكانت أشعارهم إما قائمة على إثارة الحماسة أو الفخر بالنصر؛ لهذا كادت تخلو الأشعار أثناء المعركة من التصوير الفني، وقد امتد ذلك الأمر إلى مابعد المعركة؛ لكونها وصفًا لا تصويرًا، فبطولات الجنود كانت كافية لتُحكى ولا يُستعمل فيها الخيال .

ثبت المصادر والمراجع

أولًا – المصادر :

١. الإصابة في تمييز الصحابة . الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني المعروف بابن حجر (٧٧٣– ٨٥٢هـ) . تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض.
تقديم : أد/ محمد عبد المنعم البري و د/ عبد الفتاح أبو سنة . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . ط. أولى . ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

٢. تاريخ الأمم والممالك .. تاريخ الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(٢٢٤– ٣١٠هـ). تحقيق: أبو صهيب الكرمي. بيت الأفكار الدولية . د.ت .

٣. صحيح مسلم. بعناية محمد وهيثم نزار تميم. دار الأرقم.١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

٤. فتوح البلدان.أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ) . وضع الحواشي : عبد القادر محمد علي . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . د.ت .

ثانيًا – المراجع :

١. سعد بن أبي وقاص.. السباق للإسلام، المبشر بالجنة والقائد الملهم. د/صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم – دمشق. ط.أولى. ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٢. الشعر الجاهلي: نشأته–فنونه–صفاته. فؤاد أفرام البستاني . المطبعة الكاثوليكية – بيروت . ١٩٣٧م.

٣. العصر الإسلامي. شوقي ضيف. دار المعارف. ط. السابعة. د.ت.

٤. القادسية. أحمد عادل كمال. دار النفائس. بيروت – لبنان. ط. التاسعة. ١٩٨٩م.

ثالثًا – الرسائل الجامعية :

١. الصورة الشعرية في شعر الحروب الخارجية عند العرب المشارقة .. من عصر صدر الإسلام إلى نهاية القرن الرابع الهجري. كيم نييونغ أو. إشراف :د/ نصرت عبد الرحمن . رسالة دكتوراه . ١٩٩٦م . كلية الدراسات العليا – الجامعة الأردنية .

٢. صورة المحارب في ديواني عمرو بن معد يكرب الزبيدي والقعقاع بن عمرو التميمي. محمد خالد المبيضين . إشراف :د/ خليل الرفوع. ماجستير. ٢٠١٧م . كلية الدراسات العليا – جامعة مؤتة .

رابعًا– المواقع الإلكترونية :

١. خريطة فتوحات عمر بن الخطاب . الإتاحة : https://sotor.com .